تاريخ الإرسال: 2016/03/09 - تاريخ القبول للنشر: 2016/05/19 تاريخ النشر: 2016/06/28

الفيلسوف الحُبّابي والشخصانية الإسلامية

عبد السّلام سعد

جامعة زيان عاشور، الجلفة

مقدمة:

لقد تفتحت أعين وأذهان مفكري وفلاسفة العرب المعاصرين على الفكر الغربي الحديث والمعاصر، وعلى فلسفة الأنوار بصورها المختلفة، والتي أنتجت مختلف الفلسفات الغربية: من وضعية ووجودية وماركسية وشخصانية وبنيوية وغيرها، فانبهر هؤلاء ببريقها وسُحروا بسُعارها، فأصابهم الشغف بأفكارها، واعتنق أغلبهم فلسفةً من هذه الفلسفات، فمن وجودية عبد الرحمن بدوي، إلى وضعية زكي نجيب محمود، مرورا بشخصانية الحبّابي وغيرهم، وهكذا وجد هؤلاء أنفسهم وسط خضم متلاطم من الأفكار الغربية التي تحكّمت في خطابهم الفلسفي من جهة، وبين الموروث الفكري العربي الإسلامي الذي ينتمون إليه من جهة أخرى، يقول المفكر الرائد إبراهيم مدكور:« لقد قامت الحياة الفكرية العربية المعاصرة... تائهة بين الشرق والغرب يبين القديم والجديد... ومع أن عالم الفكر لا تحده حدود، والحياة الفكرية في كل مجتمع إنما هي وليدة جهود الرواد والمتخصصين، ولأنها تؤدي إلى الوعي واليقظة الفكرية... وبصرف النظر عما تؤاخذ عليه من مآخذ ... فقد دفعت الدراسات الجامعية في الربع الثاني من القرن العشرين نحو ترجمة متنوعة في الأدب والعلم والفلسفة، نقلت عن الفرنسية والايطالية والألمانية والانجليزية... وانصب معظمها على دراسات حول آراء ومذاهب أو حول أشخاص ومدارس...» (« بحوث وباحثون» إبراهيم مدكور، 1993، ص 17-9)

إذ أن أي حياة فكرية لها عواملها ومقوماتها، وأهم هذه العوامل: الرغبة في تفهم الكون والإنسان والعالم، فهي قضايا الفكر الإنساني الكبرى، وحولها دارت الدراسات الفلسفية منذ نشأت إلى هذا اليوم، ومن ثمة حاول هؤلاء المفكرون إعادة قراءة المنتوج الفكري العربي الإسلامي، بل وإنتاج قول فلسفي جديد للإنسان والكون والوجود، وفق هذه المنظومة الفلسفية الغربية، ومن ضمن هذه الكوكبة نجد الفيلسوف الحُبّابي.

ولعلنا لا نبالغ إن تكلمنا عن الأستاذ الحُبّابي، باعتباره فيلسوفا بارزا ومفكرا رائدا، سطّر بصفحاته رحلة فلسفية بقيت معالمها باسقة في تاريخ الفكر العربي الإسلامي المعاصر، وبخاصة كتابه:'' الشخصانية الإسلامية''. حيث تعتبر الفلسفة الشخصانية من أعمق المفاهيم الأساسية التي شكلت صرح الفلسفة عند الحُبّابي، وهو الشيء الذي جعله يتميز بكونه أوّل من قدّم هذه الفلسفة للفكر العربي المعاصر، مُتبنّيا هذه الفلسفة، ومحاولا أسلمتها، بل وإيجاد تأصيل لها من الروافد والأصول الإسلامية، لأجل ذلك ألّف فيها بعض كتبه الأساسية، ولعل أبرزها على الإطلاق، كتابه الرائد :» الشخصانية الإسلامية» الذي تم نشره بالفرنسية سنة:1964م، ثم تمت ترجمته إلى اللغة العربية، كما أنه كان رسالة الحبابي الجامعية التي نال بها درجة الدكتوراة في الفلسفة، وضمّنها خلاصة فهمه للشخصانية، ولا غرو أن يعرض لنا الحُبّابي من خلاله رؤيته لهذه الفلسفة، معتمدا على قواعد محددة وثابتة تمثلت في بيانه لضرورة استقلال الشخصية، مبرزا قيمة الحرية والمسؤولية لأي شخص كان، إضافة إلى حديثه عن حقيقة المعرفة وكيفية تطويرها، مناديا بضرورة الإجتهاد مجَدَّدا، لإحداث نهضة إسلامية معاصرة، فما الذي قدمه الحبّابي من خلال دعوته إلى ما سماه بالشخصانية الإسلامية ؟ هل كانت مجرد تكرار لما تضمنته الفلسفة الشخصانية، أم أنه قدم شيئا جديدا لم تتوفر عليه الشخصانية في ثوبها الغربي ؟.

ترجمة الحُبّابي:

ولد الفيلسوف المغربي المعاصر: محمد عزيز الحُبّابي في25/12/1922م بمدينة:» فاس» بالمملكة المغربية وتعلم في المدرسة القرآنية – الكُتّاب– في صباه، ثم واصل تعليمه الإبتدائي والمتوسط والثانوي بفاس، وعلى الرغم من صغر سنه إلاّ أنه كان يمارس العمل السياسي، ونظرا لنشاطه السياسي ضمن الحركة الوطنية المغربية، فقد سجنه المستدمر الفرنسي مرات عديدة، ثم قام بطرده نهائيا من المعاهد التعليمية عام1944م فارتحل مكرها إلى باريس، ليُتِمّ دراساته الجامعية بها، فيحوز على شهادة الدكتوراه دولة في الفلسفة من جامعة السوربون بدرجة مشرف جدا.

مساهماته االثقافية:

– كان الحُبّابي أوّل عميد لكلية الآداب بالرباط، وأول من أسس شعبة الفلسفة بكلية الآداب بالمغرب؛ وقد تخرّج على يديه جيل من المفكرين المغاربة؛ كما عُيّن رئيسا لجمعية الفلسفة بالمغرب، وكان الرئيس المؤسس لاتحاد كتّاب المغرب العربي، إضافة إلى اشتغاله مديرا لمجلتيْ:'' تكامل المعرفة'' و'' آفاق''. كما انتخب الحُبّابي عضوا في مجموعة من الأكاديميات، ومنها: أكاديمية المغرب، وأكاديمية علوم ما وراء البحار بفرنسا، إضافة إلى عضويته بأكاديمية البحر المتوسط بايطاليا، والأكاديمية الدولية للفلسفة والفنون بسويسرا، والفدرالية الدولية للفلسفة، كما تقلّد عضوية المراسلة لمجمّع اللغة العربية بالقاهرة.

وللحُبّابي عدد من المؤلفات الفلسفية والأدبية والشعرية، التي كتبها باللغتين: العربية والفرنسية، حيث ترجم بعضها إلى ثلاثين لغة، منها: الإنجليزية والإسبانية، كما انتُخب أميرا للقصة بباريس سنة 1982م؛ وقد كتبت حول فلسفة وفكر والحُبّابي، العديد من الرسائل الجامعية داخل المملكة المغربية وخارجها؛ كما عقدت حول فلسفته ندوات عديدة، وكانت وفاته رحمه الله بالمغرب، سنة 1993م.

من أبرز مؤلفات الحُبّابي:

– '' من الكائن إلى الشخص ''

– '' دراسات في الشخصية الواقعية ''

– '' الشخصانية الإسلامية ''

– '' من الحريات إلى التحرر''

– الحُبّابي والشخصانية الإسلامية

تعتبر الشخصانية Personnalisme مصطلحا مرادفا للذاتية، وهي مذهب الفيلسوف الفرنسي: إمانويل مونيي Emmanuel Mounnier، ومعناها القول بأن فكرة الشخصية مقولة ضرورية لإدراك العالم، كما أنها أيضا مذهب اجتماعي وأخلاقي، مبنيّ على القول بأن للشخص الإنساني قيمة مطلقة.

ويشير الحبابي من خلال ما تضمنته كتبه، إلى أن مأساة الوعي عند هيغل، وتجربة القلق عند كيركجارد، واسترقاق رأس المال لدى ماركس، وتجربة الإبهام عند الوجوديين، والإلتباس لدى مونيي، والعبث عند كامو، كلها تجارب نحياها على مستوى الشخص وحيث أن الشخصانية الواقعية للحُبّابي، أرادت أن تبيّن لنا أي طريق ينبغي أن يسلكه الكائن البشري، ليكتسب هويته الإنسانية، حيث يجب عليه أن يتعالى على ذاته ليَتِمّ له التشخصُن أوّلاً، ثم عليه الإرتفاع إلى مستوى الإنسانية ثانيا، والتي هي:« القاعدة التي ترتفع شخصيات الشخص فوقها...» (''من الكائن إلى الشخص'' محمد عزيز الحُبّابي، 1969م، ص.25).

ومعنى ذلك أن أي خطوة يخطوها هذا الكائن البشري في سيره المستمر والمتواصل، يجب أن تكون مصحوبة برفض ومعارضة الواقع المؤلم، ولا ينبغي أن تقبل هذه الذات وضعها الحالي، وعليها ألّا تطمئن إلى شخصيتها الحالية، وأن لا تقنع بوجودها المنحصر في الحاضر؛ بل يتوجب عليها أن تأخذ بوادرها لترتسم في المستقبل، وتتحرر من أسرها، أو على حد تعبير الحُبّابي:«على الذات أن ترفض الإنحصار إلى الأبد في هذا الشيء أو ذاك،

فهي صيرورة لا نهائية... لتجاوز الذات بالذات.» (نفسه، ص.15)

فالمعركة التي يحياها الكائن دوما هي معركة من أجل التحرر، بل ومن أجل مزيد من الحريات المتتالية، ليتِمّ تحقق الاستقلال الذاتي للشخص. ولعل مفعول الشخصانية يبدأ عندما يرفض الشخص الطاعة العمياء: طاعة الأشخاص، أو طاعة الأفكار، أو طاعة الأشياء، ويعترف بالقيمة العليا للعقل والفكر، كما لا يسمح بفرض أي وصاية عليه، مستدلا بقول اللّه تعالى:« لا إكراه في الدين» (سورة البقرة، الآية: 256).

فالخطاب القرآني الذي توجّه إلى جميع أتباع الملل والنحل التي سبقته إلى الظهور، دعاهم إلى الكف عن اعتقاداتهم الفاسدة، وتصوراتهم الساذجة، واعتمد في دعوته تلك على الحجة العقلية التي لاَ يمكن أن تكون إلاّ واردة في بنية منطقية، حيث الإقناع العقلي لمن كان ذا عقل راشد غير مكابر؛ ومن ثمة فإن الشخصانية في الإسلام في نظر الحُبّابي، تختلف في مبادئها عما قامت عليه المسيحية التي كانت تقول بالوساطة بين البشر والخالق، أما في الإسلام فلا توجد هذه الوساطة، بل إن الإسلام يرفض رفضا قاطعا هذه الوساطة، لأن اللّه تعالى قريب من كل شخص؛ قال اللّه عز وجل:« وإذا سألَك عبادي عنّي فاني قريبٌ أجيبُ دعوةَ الداعي إذا دعانِ» (سورة البقرة، الآية:186)

ويذهب الحبابي إلى أن الإسلام لا يفرق بين مسلم عربي ومسلم أعجمي، فبقطع النظر عن عرق الشخص ولونه ودمه، فإنه لا اعتبار ولا ميزة بين الشخصيات الإسلامية إلا للتقوى، قال اللّه تعالى:« إنّ أكرمَكُم عند اللّه أتقاكُم » (سورة الحجرات، الآية: 13)

وهذا يدل دلالة واضحة وقاطعة على وحدة الطبيعة الإنسانية، حيث منح الإسلام هذه الهوية الجديدة للإنسان، وأحدث من أجل استيعاب هذه الهويّة أمة جديدة، لم يكن لها مثيل – من قبل– بين الأمم، فلم تقم لها قائمة على أساس عرقي أو ديني أو لوني أو طائفي، وإنما قامت عل أساس الاعتراف بالإنسان، فكان الإسلام دين الإنسانية بحق؛ وإن الخطاب القرآني خاطب العقل الإنساني بالإطلاق، ودعاه إلى التأمل والتدبر في آيات كثيرة، قال اللّه تعالى: « إنّ في خلق السموات والأرض واختلافِ الليل والنهار لآياتٍ لأولي الألباب» (سورة آل عمران،الآية:190)

ورغم عالميته، فإن الإسلام لم ينف خصوصيات الشعوب، ما لم تتعارض مع مبادئ العقيدة الإسلامية، وبذلك تتجلى أهمية االشخصانية الإسلامية حسب الحُبّابي، في كون الدين الإسلامي يخاطب جميع الناس لتحقيق إنسانيتهم عن طريق العمل الصالح والخير والفضيلة، ودون الاعتماد على الإنتساب لأفضلية الآباء والأقوام أو القبائل واللغات، مستدلا بقول الرسول صلوات اللّه وسلامه عليه:« يا أيها الناس: إن ربكم واحد وإن أباكم واحد ،

كلكم لآدم وآدم من تراب، وإن أكرمكم عند الله أتقاكم، وليس لعربي على عجمي ولا لعجمي على عربي، ولا لأحمر على أبيض ولا لأبيض على أحمر فضلٌ إلا بالتقوى...» ومن ثمة لعب المكوّن الإسلامي في نظر الحبابي دورا مهما في انتشال الفرد، من طغيان وجبروت القبيلة والعصبية التي كان يرزح تحتها، من خلال تحويله من كائن إلى شخص، أو من الكينونة إلى الشخصانية، وبفضل الإسلام شعر الفرد أنه جزء من وحدة منظمة، تنظيما قائما على أخلاقية عالية، أصبح يتعالى بها عن القبليّة والأنانية والفردانية.

ومن خلال هذا التحليل المبيّن لعوامل ومسببات تكوين الشّخْصَنَة، ينفي الحُبّابي وجود شخصانية عند الإغريق والرومان، مؤكدا على أن الشخصانية وجدت بوجود الإسلام وظهرت بظهوره، ذلك لأن الإسلام لم يقبل أي تبعيّة أو إمّعيّة أو تقليد للغير، ولا يرضى بالخنوع أو الخضوع لأي إنسان أو لأي شيء مهما كان مقدسا، بل إن الإسلام يؤكد على ضرورة أن يشعر الإنسانُ أيَّ إنسان، سِيّانِ كان مسلما أو غير مسلم، بتميُّز شخصيته وكرامته، لذلك نجد أن الرسالة الإلهية خاطبت المسلمين وغيرهم بالتساوي، وأقرّت للجميع بالكرامة، فلكل فرد توجّهه الخاص وكينونته المتفردة المستقلة، مستدلاّ بقول الله عز وجل:« ولكلٍّ وِجْهَةٌ هو مُوَلِّيها» (سورة البقرة، الآية:148)

فالإسلام والشخصانية يقولان بحرية الإنسان، وبقدرته على المبادرات، بدليل أن المؤمن قد يرتدُّ كافرا، والكافر قد يصبح مسلما. (" الشخصانية الإسلامية" محمد عزيز الحُبّابي، 1969م، ص.6- 103). ولذلك يتساوى المسلمون في الإتصاف بالشعور بالكرامة، والتطلع إلى أفضل درجة وهي التقوى، حتى يتسنى لهم فهم ومعرفة أنفسهم بشكل أكمل؛ بل وفهم ومعرفة الكون والوجود كله أيضا.(نفسه. ص.38) مستدلا بآيات قرآنية عديدة، منها قول الله تعالى:« إنَّ أكرَمَكُم عند الله أتْقاكُم» (سورة الحجرات، الآية:13) وقول الله عز وجل: « لا إكراه في الدين» (سورة البقرة، الآية: 256).

ومن هذا المنطلق يتعرّف المسلم على نفسه وعلى ما حوله، فيتعمق إيمانه ويزداد اجتهاده في تحصيل الإيمان النظري والسلوك العملي، والخضوع لله الواحد الأحد، الموجود الحي الخالق الحكيم... وبذلك يتوصل المسلمون إلى توحيد الله والإقتداء بالرسول الكريم عليه الصلاة والسلام، ويدركون أنهم أبدا تحت الرعاية والعناية والحماية الإلهية. (" الشخصانية الإسلامية" ص.40-36) كما يؤكد الحبّابي على أنّ « قوام الإسلام هو الحب، ولأن الإنسانية فقدت هذا الحب، فقد فقدت سعادتها، وتبعا لذلك علّمنا الإسلام أنْ نحب الله ونحب الكائنات البشرية، لأن مفتاح كل الأسرار هو الحب، على أنّ هذيْن الحُبّين يكوّنان حبا واحدا، ما دام حب الله يبدأ بحب الكائنات...» (نفسه، ص.72-41)

وهذا الحب في نظره ضروري، لكونه يؤدي إلى التواصل مع الآخرين والتشارك معهم، ليحيا الناس بعمق الأبعاد الإنسانية، وهذا يستلزم أنه بدون هذا التواصل لا يكتشف الإنسان ذاته، فيبقى مضطربا قلقا متوترا؛ وبما أن

الإنسان في حقيقته ليس إنسانا كئيبا منعزلا، بل إنه يعيش في بيئة اجتماعية ويتكامل مع غيره، لذلك فإن المغزى العميق للتشخص مرتبط بالحب؛ لا بل إنه يرتكز أساسا على الحب، حيث يرى الحبّابي أن الشخصانية تجعل من تواصل الأنا بالغير بعدا عميقا، وبدونه لا يمكن للكائن البشري أن يتشخص. هذا التواصل يتجسّد مثلا في الشهادة، فحين يتحدّث الحبّابي عنها، يبيّن أنه كمسلم شهد بأن لا إله إلا اللّه، فهو يعبّر من خلالها عن إنّيَّته وعن الآخرين أيضا، لكونهم امتدادا له بهذه الشهادة، كونهم يقرّون جميعا بوجود اللّه، ويشهدون بألوهيته وقدرته على كل شيء، فعندما أشهد أن لا إله إلا اللّه، فإنني أضع الشاهد الذي هو أنا في معيّة الآخرين، أي أن هذه الشهادة ايجابية من نواح عديدة:

فمن الناحية الأنطولوجية لها قيمة، حيث يدرك الشخص ذاته في بداية الشهادة وآخرها، إذ يشهد أمام نفسه وأمام الآخرين؛ بل وأمام العالم كله بقبوله لهذه الشهادة.

ومن الناحية السيكولوجية يترتب عنها تأسيس علاقة مع الغير، فما دام الأنا والآخر مشتركان في أداء نفس الشهادة، فإنه من خلال الآخر أكتشف ذاتي وأقوّم سلوكاتي، وأحكم على تصرفاتي.

وأما من الناحية السوسيولوجية، فإن ذات المسلم جزء من الـنّحْنُ المسلم، لأن الذات تتكيف شخصيتها في وجودها وتصرفاتها داخل المجموع.

ومن الناحية الميتافيزيقية، فإننا نجد في أعماقنا أعظم الآيات الدالة على الحضور الكلي الإلهي، قال اللّه تعالى: « وفي الارض آياتٌ للموقنين وفي أنفسكم أفلا تشعرون» (سورة الذاريات، الآيتان: 21-20)

فالشخص سواء كان مسلما أو غير مسلم، يجد نفسه ضمن هذا الانتماء، وإزاء هذا الحضور السرمدي اللامتناهي الأعظم؛ وبهذا يجعل الحبّابي الشهادة، النواةَ الأصلية والأصيلة للشخصانية الإسلامية، ذلك أنه عندما ينطق الشخص بشهادة أن لا اله إلا اللّه، فإنه يتحوّل بذلك إلى الإسلام، ومن ثمة يشعر بقدرته على استخدام عقله واستثمار حريته، بل وشعوره بالاستقلال الذاتي، بناء على أن اللّه تعالى أنعم على الإنسان بنعمة العقل، التي هي جوهر وحقيقة وكمال الإنسان في فهم نفسه، ومعرفة قدرته على التحرر من سائر الحتميات، وهذا كله يدل على أن التشخص يرتكز أساسا على العقل، فالعقل تبعا لذلك له الدور الأسمى في تعليم الشخص، بغية إصلاحه وتوجيهه. ومع أن الإسلام دعا إلى استخدام العقل وإلى التفكير والتدبر، إلا أن الحبّابي لاحظ تخلّف المسلمين، ولذلك تساءل عن أسباب هذا التخلف والإنحطاط، هل ترجع إلى عوامل داخلية، أو خارجية ؟ وهل تقهقر وتخلف المسلمين دليل على تخلف الإسلام ؟.

لقد استبد بنفسيته الحادة هاجس المنطق، فأعاد النظر كرّتين في الفلسفة الشخصانية وفي التراث الإسلاَمي،

مستلهما منه نماذج سامقة، ومستوحيا مواقف أصيلة تمثل الفكر الإسلاَمي الحق، وقد اعترف أستاذنا ذاته في مقدمة، مؤكدا على أنه وصل إلى قناعة ثابتة، وهي أن الفكر الإسلاَمي بخلاَف ما أشيع ويشاع عنه، وبغير ما ارتسم في أذهان كثير من الناس عنه، ممن لم يطّلعوا على آثاره الأصيلة، فكرٌ واعٍ ناقد ناضج متميز، يستمد أصوله من عقيدة الإسلاَم وشريعته. لذلك يؤكد الحبّابي على أن العوامل الخارجية في الغالب، هي المسئولة عن انحطاط الأمة الإسلامية، مشيرا إلى أن الغرب لم يدرك حقيقة الإسلام ولم يفهم مراميه، فقد حصل لمفكري الغرب سوء فهم، جراء خلطهم بين ما كان واقعا للأوربيين في القرون الوسطى، إذ كان العصر الوسيطي الإسلامي مزدهرا علميا وحضاريا، بخلاف العصر الوسيطي الأوروبي الذي اتسم بالجمود والتخلف الفكري، لذلك احتفظ مفكرو الغرب بتلك الصورة السلبية، فحكموا على المجتمع الإسلامي بمثل ما حكموا به على مجتمعهم الغربي آنذاك، وشتان ما بينهما، لكن ذلك لا يمنع في رأيه من أن جميع الحضارات مرت بفترات ازدهار وقوة، وفترات ضعف وانحطاط، وبالتالي يمكنها أن تستفيد من الإرث الحضاري المشترك بين الإنسانية جمعاء، ولكن الأهم «... هو العمل على القيام بنهضة مبنية على العلم والعمل والاجتهاد، وهذا الذي دعا إليه الإسلام.»(نفسه، ص.98)

وهو بذلك يؤكد على أن الفكر الإسلامي يتطلب الإجتهاد والبحث، حتى ينهض المجتمع الإسلامي، مبرهنا على ذلك بما قام به المعتزلة، الذين اعتمدوا على الفلسفة لنشر الثقافة، والتي على إثرها ارتفع المستوى الفكري لدى أفراد المجتمع الاسلامي، منبّها إلى أن الفلسفة دورا سامقا، حيث تعمل فعلا على دعم العلاقات بين الناس من جهة، وبينهم وبين الطبيعة جهة أخرى. (نفسه، ص.102).

مشيرا إلى الدور الذي قام به الفيلسوفان: ابن رشد سابقا وإقبال لاحقا، ليقرر في النهاية، أن الفلسفة والميتافيزيقا والدين والعلم يتكاملون ولا يتناقضون. وهذا ما يتجلى في نظره من خلال قواعد الإسلام الكلية، ومبادئه العامة التي لا تتغير، والتي يمكن التكيف معها في حياتنا وبإمكانياتنا المتاحة، إذا أردنا النهوض ثانية، وبالتالي الإحتفاظ بحريتنا ومسؤوليتنا، إنطلاقا من قوله تعالى:« ولا تزِرُ وازرةٌ وِزْرَ أخرى» (سورة الأنعام، الآية:164)

كما حثت الآيات والأحاديث على أن كل مؤمن مسئول عن أفعاله واختياراته، وفي هذا إثبات لكينونة وشخصية الفرد المسلم، وإشعار له بضرورة تحمّل المسؤولية.(نفسه، ص.112)

ويبدو لي أن من الأهداف الموضوعية التي دفعت أو لعلها حملت الحبابي على العناية بالشخصانية، هو أنه أظهر إعجابا بالغا بهذه الفلسفة، لكونها مُوصلة إلى المعرفة الحقيقية للإنسان، مستدلا بالأدلة العقلية، ومؤيدا لها بالبراهين المستمدة من الشريعة الإسلامية، ومن ثمة جاءت أهدافه ومراميه متساوقة مع تصوراته وأفكاره، حيث يتبلور النظري مع التطبيقي، والفلسفي مع الديني، وفي ذات السياق يكتمل الهدف الواضح مع المنطلق الذي أسس عليه الحبابي منهجه الفكري.

ولعله حاول شرح وتوضيح وتبسيط المصطلحات والأفكار الفلسفية التي اعتدمتها الشخصانية، خاصة في ظل سوء الترجمة، لئلاّ يستغلق فهمها على الكثيرين فينبذوها، والجاهل عدو لمَ لا يعرف.

إضافة إلى محاولته نشر المعرفة – الثقافة – الخاصة بهذه المدرسة الفلسفية، داخل البيئة الاجتماعية العربية الإسلامية، ليطلع الناس على آرائها وتصوراتها، لعلهم يعتنقون أفكارها، هذا من جهة، ومن جهة أخرى، ليوجد لها صدى داخل المنظومة أو البيئة الفكرية العربية الإسلامية، ثم لا ينبغي أن نتناسى محاولته بطريقة غير مباشرة، دفع تهمة التعارض بينها وبين الثقافة الإسلامية، بدليل استدلاله بالآيات القرآنية.

ولعله قد بذل جهدا بالغا في محاولته فك عقدة الصراع والنزاع الذي كان ولا يزال قائما بين دعاة الفلسفة وأنصار الشريعة، فانتصر للفلسفة الشخصانية بطريقة موضوعية لبقة؛ كما كان غرضه دحض دعاوى مؤرخي العلم والفلسفة في بلاَد الغرب، الذين يُزْرون ويَزدرون مفكري الإسلاَم، مقللين من شأنهم، زاعمين أن مختلف الفلسفات ومن ضمنها الشخصانية أفكار لم ينتجها إلا مفكرو الغرب، ومسائل لم تعرفها سوى الحضارة الأوروبية، وزعموا أن هذا الأمر ليس له بذور من الحضارة الإسلاَمية، فكان لاَبد من تفنيد هذه الترهات، وإعادة الإعتبار للفكر الإسلاَمي.

ولعله أيضا قام بالإقدام على ذلك، لإفشاء الفلسفة الشخصانية داخل الوسط الاجتماعي العربي الاسلامي، ليطلع الخاصة والعامة على فحوى نظرياتها، وبالتالي يزال الجهل ويزاح، ويقام العلم مكانه، ولن يتم هذا التغيير إلاّ بترجمة وتقريب أفكرها إلى القارئ العربي المسلم.

الخاتمة:

مما سبق عرضه، يمكننا أن نستشف أهمية الأفكار التي قدمها الحبّابي، والفلسفة التي تبناها، وأراد الترويج لها وسط مجتمعنا العربي الإسلامي، حيث حاول كباحث عن الحقيقة، مقدما ما رآه صوابا، مبرزا ومساهما في التعريف بفلسفة كانت غامضة ومجهولة لدى كثير من مفكري العرب المعاصرين، فلا غرو أن يعدّ الفيلسوف الإسلامي الأول الذي ناقش بكل دقة وموضوعية الفلسفة الشخصانية، كاشفا عن حقيقتها، مبرزا أهميتها وصلتها بالثقافة الإسلامية، وناقدا متأملا لإفادة أمته، لأجل إيقاظ الوعي العربي الإسلامي من جديد. وبالتالي تنبغي الإشادة بما قدّمه من جهد وبحث، إنه حقا تحليل رائد وماتع للشخصانية، ويشكر على أنه تجرّأ على البحث عن العلل، أو على الأقل البوحُ بالأسباب الحقيقية الكامنة وراء هذا التقهقر، إنْ كان فعلا قد شخَّص تلك العوامل التي أسهمت في إحداث هذه المشكلة، مع أن هذه التراجع كان وليد سنوات عجاف تُمثّلُ السنوات الأخيرة قمّتها وذروة سنامها، وقد يستمر هذا المشهد لسنوات قادمة إذا لم يتدارك المهتمون بالأمر مباشرة العلاج.

لكن مع ذلك يمكننا مؤاخذة الحبابي، على أن الجهد الذي بذله في سبيل تبرير اعتناقه للشخصانية، ومحاولته إلباسها ثوبا إسلاميا، هو في حدّ ذاته مشكلة ظلت ملاَزمة لمدارسنا الفكرية العربية المعاصرة، التي ما فتئت تنشد الحلول خارج إطار المنظومة الثقافية الإسلامية، وفيما بدا لي فإنها لم تقم بانجاز أي مهمة تاريخية ولا فكرية أو معرفية تذكر، ولم تقدم أي حل عملي واضح لمعضلاتنا الفكرية ومشكلاتنا الاجتماعية؛ بل كانت مجرد ترجمة لأفكار فلسفية لا تمتُّ إلى مجتمعنا العربي الإسلامي بصلة.

لقد اتجهت محاولتي هذه، للمساهمة في كشف اللثام عن بدايات انبثاق الفكر الفلسفي العربي المعاصر ومدى قدرة الأطروحات والمباحث الفلسفية العربية المعاصرة على تقديم أفكار في غير البيئة التي أنتجتها، لكونها ليست من بُنَيّات أفكارها، وفي هذا يقول الجابري:« إن الفلسفة العربية المعاصرة ليست أصيلة لأنها تفتقد العالمية، ولأنها تفتقد أيضا إلى الطابع القومي الخاص ... ومحاولات المفكرين العرب المعاصرين إنشاء فلسفة... بخطاب يريد أن يقدم نفسه بصورة بناء متماسك، أو على الأقل يُفترض فيه الطموح إلى ذلك ... فهو خطاب يريد أن يدشن نهضة فلسفية... مع وجود تناقض في هذا الخطاب على مستويين: منطقي وإديولوجي ، أما على المستوى المنطقي فلأنه يريد أن يكون فلسفة، وأما على المستوى الإديولوجي فلأنه يريد أن يكون فلسفة عربية، فإذا نظرنا إلى الفلسفات الوجودية التي عرفتها أوروبا، وجدناها تعبّر من قريب أو من بعيد عن الواقع الاجتماعي والتاريخي الأوروبي، بوصفها شكلا من أشكال الانعكاس الاديولوجي للواقع على الفكر، ووجدنا ما يبرر وجودها وانتشارها، وما يفسر دعاواها وأطروحاتها في الواقع الأوروبي ذاته؛ فهل نستطيع أن نجد في الواقع العربي الحديث والمعاصر ما يبرر الدعوة إلى فلسفة وجودية ؟؟؟ » (الخطاب العربي المعاصر، محمد عابد الجابري، ط.5،1994، ص.130-129).

وهذا الكلام ينسحب في نظري ويصدق على الحبابي، كما يصدق على كثيرين مثله كبدوي والتزيني وأركون ونحوهم، وفلسفاتهم إنما هي تعبير واضح عن انبهار وشغف كثير من مفكرينا بفكر الغرب، لذلك انعدم تأثيرها في إصلاح ما فسد من فكر وسلوك مجتمعاتنا وواقعنا، لأنها لا تماثل الواقع العربي الإسلامي ولا تشبهه بأي حال من الأحوال؛ وهو ما عبر عنه بكل صدق وموضوعية وصراحة، الفيلسوف المصري: زكي نجيب محمود، حين قال:«... لم تكن قد أتيحت لي فرصة طويلة الأمد، تمكّنني من مطالعة صحائف تراثنا العربي على مهَل، فأنا واحد من ألوف المثقفين العرب الذين تفتّحت عيونهم على فكر أوروبي قديم أو جديد، حتى ظننّا أنه الفكر الإنساني الذي لا فكر سواه... ولكن أخذتني صحوة، فاستيقظت بعد أن فات أو أوشك... فطفقت أزدرد تراث آبائي...» (« تجديد الفكر العربي» زكي نجيب محمود، 1971م، ص.6-5).

فهذا يدل دلالة واضحة على مدى التبعية الفكرية والإمعية الثقافية التي آل إليها حال مفكرينا وفلاسفتنا العرب المعاصرين. ومع ذلك فإننا لا نغمط الحق أهله، ونقول بأنّ تراجع عبد الرحمن بدوي، وزكي نجيب محمود، والحبّابي وغيرهم، ودعوتهم الإلتفات للتراث الفكري الإسلامي، إقتباسا منه واعتناءا به، ونهلا من معينه، جدير بالإحترام، وهي دعوة طالما رددها رائد شيوخ التحقيق في هذا العصر: عبد السلام محمد هارون، بقوله:« هذا التراث الضخم الذي آل إلينا من أسلافنا صانعي الثقافة العربية الإسلامية، جدير أن نقف أمامه وقفة إجلال وإكبار، ثم نسموا برؤوسنا باعتزاز وشموخ صادق بالفخر والغبطة...» (« تحقيق النصوص ونشرها» عبد السلام هارون، 1977م، ص.5)

ان حمل الفكر العربي الإسلامي على الاستجابة لأطروحات وتصورات ومفاهيم الفلسفة الشخصانية أو غيرها من الفلسفات المولودة في بيئة غربية بل وغريبة عن معتقداتنا وتصوراتنا للإنسان والكون والحياة والوجود، إنما هو بسبب الإنفعالات الداخلية، التي عاني منها كل مفكر عربي في بيئته المقعّرة من جانب، وضمن الوضعية الثقافية المحدّبة التي تعرف عليها، واغترف منها من جانب أخر، يقول الفيلسوف المصري عبد الرحمن بدوي:« إن الانقلابات الروحية الكبرى إنما تقع نتيجة لعنف إفراط ومبالغة في الطرف الأول المنقلب عنه، فعنف القدّيس بولس كان نتيجة لعنف إنكاره المسيحية، وعنف الحياة التقية لدى القديس أوغسطين، كان لازما طبيعيا لعنف إنكاره الحياة الشهوانية الحسية التي حياها قبل تحوّله للإيمان...» (''شهيدة العشق الإلهي: رابعة العدوية '' عبد الرحمن بدوي ، دار النهضة، ط2 1962، (ص.17)

وما أظن الفيلسوف الحبابي إلا أنه انقلب من الإحساس بالمهانة في وطنه، فانقلب إلى ضدها حين أحس بضدها في غربته، كما أرغب في التأكيد على أنه قد يوافق بعضنا الفيلسوف الحبابي أو قد يخالفه، ولكننا جميعا ودون استثناء على ما أعتقد، وعلى أية حال لاَ نملك إلاّ نقرّ بأنه دشّن مرحلة جديدة من اهتمام القارئ بالفلسفة الشخصانية، هذه النزعة الفكرية النقدية التي انكب أستاذنا على إنضاجها إسلاميا، مع استخلاَص واستنباط النتائج الضرورية منها، فعسى أن نتمكنّ من إعادة النظر في هذا الإرث الفكري الخصب، عبر قراءات فلسفية وعلمية وإبستيميّة نقدية جديدة.

وبهذا الجهد حاولنا إبراز قيمة تجوال الحبابي في أروقة الفلسفة الشخصانية، وفي كونه حاول إثراء الفكر الفلسفي العربي الإسلامي، متابعا ما فعل الفلاسفة القدامى كابن رشد وابن حزم وغيرهما، وهو انجاز فكري هام بغض النظر عن الرؤية الإديولوجية للمؤلف، بل إنه ليس الوحيد في نظري، فقد انشغل الباحثون بأعمال وآثار أسلافنا من العلماء والفلاسفة تحقيقا ودراسة' مستفيدين من الإنجازات المعرفية والمنهجية التي ظهرت على الساحة الفكرية المعاصرة، وعلى ضوئها كان لابد من إعادة قراءة تراثنا الفكري، لأننا إذا نظرنا إليها من الزاوية الإبستمولوجية المحضة، فإننا نجدها مشروعا فكريا فلسفي الأبعاد؛ وإن المشاريع الفكرية الكبرى التي تعتمد على النقد وتهدف إلى التغيير، لا تموت بموت أصحابها، بل هي تحتاج إلى بعض الوقت' إلى اللحظة التاريخية المناسبة، ولذلك فإن الحاجة لا تزال ملحة إلى دراسات موضوعية نقدية وتقويمية، بعيدة عن التحيز والذاتية، بل وتقديم رؤى وتصورات أكثر عمقا وضبطا، لأجل إعادة التشكيل الثقافي والفكري للعقل العربي الإسلامي المعاصر.

مسرد المصادر والمراجع:

– القرآن الكريم

– محمد عزيز الحُبّابي: '' الشخصانية الإسلامية '' دار المعارف، القاهرة، ط.2، 1969م

'' من الكائن إلى الشخص'' دار المعارف، القاهرة، ط.1968م

– زكي نجيب محمود: '' تجديد الفكر العربي» دار الشروق، القاهرة، ط1، 1971م

– عبد الرحمن بدوي: « شهيدة العشق الإلهي: رابعة العدوية '' دار النهضة، ط2، 1962

– محمد عابد الجابري: للّه الخطاب العربي المعاصرللّه مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط.5، 1994

– عبد السلام هارون: « تحقيق النصوص ونشرها» مكتبة الخانجي، القاهرة ، ط.4، 1977م

– إبراهيم مدكور: « بحوث وباحثون « المطابع الأميرية، القاهرة، ط. 1993